

الخليفة العقدي للمهدي بن تومرت (474-1080 / 524-1130)

د. ساعد خميسي

قسم الفلسفة، جامعة قسنطينة

- مقدمة

إن المستقرئ للتاريخ الإسلامي تستوقفه ملاحظة مفادها أن كل الدول أو الدويلات التي قامت خلال العصور الوسطى في الحضارة الإسلامية، سواء في مراحل تقدمها وازدهارها، أم في مراحل ضعفها واضمحلالها، قد قامت بدعوى مذهبية معينة لتطرحها بديلا على ما هو قائم، مع العمل على تقديم الحجج الكفيلة بنقد النظام القائم ودحضه، من خلال الكشف عن معائب مذهب العقدي والفقهي وتبيان مستويات انحرافه عن الأصل، ومن هنا تدعى كل دولة تقوم أنها المعنية بحديث الفرقة الناجية، وأن النظام المراد تغييره قد كفر أو حاد عن الأصلين: الكتاب و السنة. ولا تُستثنى الدولة الموحدية من هذه القاعدة، بل تُشكّل مثالا حيا للدولة التي قامت على أساس مذهبي عقدي، حاول التوحيد بين مختلف المذاهب ليستوعب التيارات الدينية ومن ثم السياسية السائدة من جهة، وليجعل من دولته اسما على مسمى، من جهة أخرى، مع أن التوحيد المقصود أولا هو: أصل العقيدة الإسلامية الأول وجوهرها.

لهذا تأتي هذه الدراسة محاولة إبراز الملامح العامة: السياسية والفكرية، وبالأساس الدينية المذهبية التي تميز النظام الموحيدي المهدوي وتجعله متفردا. ولكن هذا لا يمنع من الحديث عن أنظمة موحدية اختلفت وتعاقبت بتعاقب خلفائها منذ عهد محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن تومرت إلى عهد عبد الواحد الرشيد بن إدريس 630 / 1232،

وفي كل هذه الفترة تفاعلت وتصارعت تيارات سياسية ومذهبية مختلفة، كانت تغذيها النواحي المذهبية حيناً والمطامح السياسية السلطوية، أحياناً أخرى جسدتها محاباة للبعض ومحاكمات و محن للبعض الآخر، وقد يجتمع الأمران معاً كما هو الحال لأبي الوليد بن رشد. ولكن ما كان ليحدث كل هذا لولا العمل التأسيسي الجبار الذي قام به المهدي بن تومرت، باعث الدولة الموحدية، الدولة التي بلغت فيها الحضارة الإسلامية في شطرها المغربي أوجها في مختلف العلوم والفنون، فمن يكون هذا الرجل؟ وما هي الخلفية العقدي والتاريخية التي أنبت النظام الموحدى؟

أولاً - البيئة العلمية، الثقافية والسياسية لابن تومرت:

ولد ابن تومرت حوالي سنة 474 / 1080⁽¹⁾ في «إيجلي ان دارغن» وقد تكون «جیلز الحالية»⁽²⁾ الواقعة جنوب المغرب الأقصى، وهو من «قبيلة «هرغة»، من قوم يعرفون ب: «إسريغن» «وهم الشرفاء بلسان المصامدة»⁽³⁾. وللشرفاء معنى يتصل بما زعمه ابن تومرت من امتداد نسبته إلى: «علي بن أبي طالب» ويؤكد بعض المؤرخين مثل: «عبد الواحد المراكشي» القائل: «ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن ابن علي بن أبي طالب...»⁽⁴⁾. وابن القطان الذي يذكر نسب ابن تومرت بقوله: «هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه»⁽⁵⁾.

-
- (1) عبد المجيد النجار : فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1992.
 - (2) ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، ليبيا، 1969، ص. 251.
 - (3) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم و تحقيق: محمد زينهم ومحمد عزب، دار الفرحاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، ص. 155.
 - (4) المصدر نفسه ، ص. 155.
 - (5) ابن القطان المراكشي: نظم الجُمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تقديم وتحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1990، ص 87.

عُرف بعدة ألقاب منها: «عبد الله» و«ابن تومرت» و«الشيخ» و«أمغار». أما عن لقب ابن تومرت فيذكر ابن القطان أنه كلمة بربرية تعني ضرباً من الأكيسة الجلدية⁽¹⁾، وقد لقبته أخته بهذا اللقب، بينما لقّبه أبوه: «أمغار» وتعني هذه الكلمة: «الزعيم أو الرئيس»⁽²⁾.

لم يمرّ عامان على تاريخ مولد ابن تومرت حتى اكتملت أركان الدولة المرابطية بزعامه «يوسف بن تاشفين» الذي بالرغم مما قيل حول تشجيعه للعلم والجدل والفلسفة وحرية الفكر في بادئ أمره، إلّا أنه طبع حكمه بلون مذهبي فقهي محدّد، وركّز بذلك على جانب من العلم الديني وعلى رجالاته الذين قرّبهم منه وشاركهم سلطانه.

ولقد بلغ هذا الاعتناء بالفقهاء حدّاً مغاليا فيه في عهد: «علي بن يوسف بن تاشفين» إلى درجة أنهم أصبحوا مرجعا لا غنى عنه، حلّ محلّ مصادر التشريع، فأهمل القرآن، وسدّ كل باب للاجتهد، فلا فتوى ولا رأي إلّا من قبل فقهاء السلطان، أو من سلطان الفقهاء، لما كان لهم من نفوذ على الحاكم، يقول صاحب «المعجب» عن «علي بن يوسف بن تاشفين» وعن احتوائه من الفقهاء: «واشتد إثاره لأهل الفقه، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولّى أحدا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألاّ يقطع أمرا ولا يبتّ حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلّا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس»⁽³⁾.

ولمّا تولّى الفقهاء شؤون الحكم بدلا من الحاكم، وتحولوا من مستشارين إلى حكام بالفعل أصبحوا قلة الناس جميعا والمتصرفين في شؤونهم الدينية والدنيوية فتجاوزوا بذلك المسؤوليات الفقهية المنوطة بهم إلى ما لا شأن ولا دراية لهم به من

(1) المصدر نفسه، ص 88.

(2) ألفرد بل: المرجع السابق، ص 251.

(3) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 150.

فنون السياسة، وسلبتهم الدنيا فانحرفوا عن الجادة ولم يُمسوا معلمين ولا علماء حتى وصفهم «المراكشي» بقوله: «ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طول مدته، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم...»⁽¹⁾.

هذا، مع الإشارة إلى أن فقهاء المرابطين على مذهب «الإمام مالك»، وهم المقربون من السلطان - كما سبق الإشارة إلى ذلك - بل، والموجودون على الساحة المغاربية المرابطية دون سواهم من المذاهب، وعملهم كان أن لا بديل عن مذهب «الإمام مالك» دون تجديد ولا تأويل، كما أن لا بديل ولا إضافة ولا اشتغال بعلم غير «الفقه» أو «علم الفروع»، وكان نتيجة ذلك أن أهمل حتى الأصول التي بنى «مالك» عليها مذهبه الفقهي. فلم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نُسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -⁽²⁾.

إذن، ساد فرع واحد من فروع العلم والمعرفة وهو: الفقه (المسمى بعلم الفروع)، ومعنى هذا أن التفسير وعلوم القرآن وعلوم الحديث والتصوف وغير ذلك من العلوم الدينية قد أهملت. وإذا كان البحث في الأصول وفي العلوم الدينية قد أهمل، فإن العلوم المتعلقة بها وبالنظر كعلم الكلام والفلسفة قد حُرِّمت وكُفِّر المشتغلون بها. وما يؤكد هذا هو اقتناع فقهاء الأمير بمنع الخوض في علم الكلام لاستحدثاته في الدين، وتشدد في ذلك إلى درجة أن توعد المشتغلين به، ولقد قال المراكشي في هذا الصدد: «فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمن يعتني بهما [أي بالكتاب والسنة]، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام. وقرّر الفقهاء عند أمير المؤمنين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر

(1) المصدر نفسه، ص 150. (2) المصدر نفسه، ص 151.

عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد ... حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله. فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه. وتوعد من وُجد عنده شيء من كتبه»⁽¹⁾. وبهذا كله، كان العلم والتعليم في هذا العهد مقتصرًا على حفظ القرآن وموطأ مالك دون إعمال للعقل، لا بتأويل ولا بتفسير، مع شيء من اللغة والحساب بغية معرفة أوقات العبادات وحساب الموارد.

ولقد بلغ الحد بالأمير في تجسيد وعيده و تحريمه الخوض في علم الكلام وسائر العلوم الدينية بما في ذلك التصوف إلى الأمر بحرق كتاب «إحياء علوم الدين للغزالي بفتوى فقهاه، وكان ذلك سنة 503/ 1109 كما يؤرخ ذلك «ابن القطان» بقوله: «في أول عام ثلاثة وخمسمائة عزم علي بن يوسف - عن إجماع قاضي قرطبة [أبي عبد الله بن محمد بن] علي بن حمدين و فقهاها - على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى المسمى «الإحياء» فأحرق في رحبة مسجدها ... بعد إشباعه زيتا... ونفذت كتبه إلى جميع بلاده آمرا بإحراقه حيثما وُجد...»⁽²⁾.

و كرد فعل على هذا التشدد من المرابطين تجاه الغزالي والولوعين بفكره ظهرت حركة احتجاجية قادها صوفية مدرسة المرية الأندلسية ضد تحريم كتب الغزالي وحرقها⁽³⁾ ومن الذين انتصروا لأبي حامد: «أبو الفضل يوسف بن محمد النحوي» (ت 513/ 1119) والذي قيل عنه انه كان يقرأ «الإحياء». بإدمان.⁽⁴⁾ ويبقى الصوفي أبو العباس بن العريف» (ت 537/ 1142) صاحب «محاسن المجالس» من أبرز المتأثرين بالغزالي، وإليه يرجع السبق في إذاعة أفكار الغزالي ومؤلفاته، وبسبب ذلك جاء

(1) المصدر السابق، ص 251.

(2) ابن القطان : نظم الجمان، ص 71.

(3) ألفرد بل : المرجع السابق، ص 380.

(4) ابن قنفذ القسنطيني (أبو العباس أحمد الخطيب): أنس الفقير وعز الحقيير، نشره وصححه: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1996، ص 108.

به إلى مراكش مكبلا وقتل بالسم.⁽¹⁾ ويواصل مسيرته في الانتصار لآراء أبي حامد الغزالي «أبو بكر بن العربي» (ت 545/1150) صاحب «العواصم من القواصم» والذي تتلمذ على الغزالي وحاز منه على الخرقة الصوفية.⁽²⁾

ويذهب بعض المؤرخين بعيدا في الحديث عن آثار واقعة حرق كتب الغزالي ومنعها من التداول مثل ما ذهب إليه ابن القطان بأن جعلها سببا رئيسيا في سقوط الدولة المرابطية فيقول: «وقد كان إحراق هؤلاء الجهلة لهذا الكتاب العظيم سببا لزوال ملكهم»⁽³⁾. وفي مقابل زوال ملك المرابطين بسبب الغزالي وكتابه، فإن قيام الدولة البديل سينطلق من فكر الغزالي كقاعدة عقديّة (أيديولوجية) ثم إن جل الذين اتجهوا إلى المشرق في طلب العلم سيعودون مشبعين بفكره، كما هو الشأن بالنسبة إلى منظر الدولة الموحدية ومؤسسها عبد الله بن تومرت. فإين تكونت شخصيته ؟ وعلى من تعلم ؟ وبأي المذاهب تشبع ؟

ثانيا- تكوين شخصية ابن تومرت: الدينية و السياسية

أ - في المغرب الإسلامي

لا نتحدث المصادر التاريخية بالتدقيق عن السن التي شرع فيها ابن تومرت في التعلم ولا عن المادّة المعرفية التي تحصل عليها، خاصة في المغرب، ولكن في مقابل ذلك نتحدث عن شغفه بالتعلم ورغبته الجامعة في الدراسة ممّا جعله متميزا، متفردا عن أقرانه، فلم يكن يبالي بلعب الصبيان ولهوهم، ولم يكن ليغادر المسجد إلّا قليلا، ولكثرة ملازمته المسجد ليلا وقراءة القرآن على ضوء القنديل لُقّب بـ : «أسفو» «ومعنى أسفو بالبربرية «الضياء»»⁽⁴⁾.

(1) التادلي (ابن الزيات أبو يعقوب) :التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي تحقيق: أحمد التوفيق منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1984م، ص ص 118-120.

(2) ألفرد بل : المرجع السابق، ص 378. (3) ابن القطان : نظم الجمان، ص 71.

(4) المصدر نفسه، ص 89.

حفظ ابن تومرت القرآن وبعض مبادئ النحو في قريته⁽¹⁾، وكانت هذه المواد أقصى ما يمكن طلبه في مثل منطقته، لهذا غادر مسقط رأسه متجها شمالا عساه يجد ضالته من العلم والحكمة، فقصده مراکش كما ذهب إلى ذلك «ليني بروفنسال» (Levi Provençal) «⁽²⁾ ثم «جاز البحر إلى الأندلس طالبا العلم، ووصل قرطبة...»⁽³⁾، وبهذه المدينة و في حوالي سنة 500 / 1106 يُعتقد أنه درس بعض أصول المذهب الظاهري «لابن حزم الأندلسي» (ت 455 / 1063) على يد «أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين» (ت 548 / 1056)⁽⁴⁾ وهنا يتأثر بهذا المذهب ويأخذ به خاصة في الفقه وبعض المسائل التشريعية ويبدو ذلك جليا في تركيز ابن تومرت في دعوته وفي استدلالاته الدائمة بالقرآن وبالحديث. وباستثناء دراسته للمذهب الظاهري بقرطبة، لم يجد ابن تومرت بالمغرب الإسلامي ما يشبع رغبته في طلب العلم لهذا «مشى من قرطبة إلى المرية ، فدخل منها في موكب إلى المشرق وغاب في رحلة في طلب العلم خمسة عشر عاما»⁽⁵⁾.

ب- في المشرق الإسلامي :

توجّه «ابن تومرت» إلى المشرق الإسلامي طالبا العلم حسب المراكشي حوالي سنة 501 / 1107⁽⁶⁾، وكانت المواطن التي درس بها متعددة ومتنوعة التخصصات والمذاهب والاتجاهات يُدرّس بها أساتذة علماء لهم بصماتهم في التراث الإسلامي (في الفقه وعلم الكلام والفلسفة والتصوف واللغة إلخ...)

(1) Rachid Bouroiba : Ibn Tumart ، SNED.Alger 2^eedition، 1982، p.18.

(2) Ibid.

(3) ابن القطان : نظم الجمان ، ص 62.

(4) علي الإدريسي: الإمامة عند ابن تومرت، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1991، ص 109.

(5) ابن القطان : نظم الجمان ، ص 62.

(6) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 155.

من هذه المحطات الهامة التي تركت أثرها في تكوين شخصية ابن تومرت المصلح، المعلم والسياسي: الإسكندرية، حيث تتلمذ فيها على يد «أبي بكر الطرطوشي»⁽¹⁾ (ت 521/ 1127) الأندلسي الأصل والمالكي المذهب، تعلم منه أصول الفقه والجدل، وأفكار فلسفية وصوفية جسدها زهده في الحياة وتعالیه عن طلب الدنيا ومغرياتها، وكذا استماتته في تطبيق مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في التعبير أو ممارسة ما هو حق مهما كانت عواقبه، ولقد عمل الطرطوشي بهذا المنهج في نضاله من أجل تثبيت المذهب السني⁽²⁾. ولعلّ هذا من أبرز ما أثر في «ابن تومرت» وساعده في ذلك طبعه البدوي الجبلي الغليظ.

وتُعد «بغداد»⁽³⁾ من أهم المحطات في حياة «ابن تومرت» التعليمية، قضى بها قرابة العشر سنوات⁽⁴⁾ فاكسب فيها كمًا من المعارف والمعلومات، إضافة إلى خبرة حياتية بما اطلع عليه من تعدّد في الفرق وفي الإنتماءات المختلفة: فقهية وعقدية وعلمية ومن ثم سياسية. ومن بين الذين درس عليهم «ابن تومرت» ببغداد نذكر «أبا بكر الشاشي» و«الكيّا الهراسي» و«المبارك بن عبد الجبار» و«أبا حامد الغزالي».

أمّا عن «أبي بكر الشاشي» وهو واحد من أكبر فقهاء الشافعية «فأخذ عليه [ابن تومرت] شيئًا من أصول الفقه وأصول الدين»⁽⁵⁾ وعن العالم الأشعري المتأثر بمدرسة الجويني «الكيّا الهراسي» (ت 504/ 1110) درس ابن تومرت الفقه وأصوله والجدل والحديث⁽⁶⁾ كما يُحتمل أن درس علوم الحديث أيضًا على «المبارك بن عبد الجبار»

(1) المصدر نفسه، ص 156.

(2) Encyclopedia Universalis.

(3) يتحدث «ابن خلدون» في «العبر» عن استفادة ابن تومرت الكبيرة في بغداد لما لقيه لدى علمائها وفحول نظارها.

— ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص 465.

(4) عبد المجيد النجار: فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب، ص 67.

(5) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 155.

(6) علي الإدريسي: الإمامة عند ابن تومرت، ص 110.

(ت 500 / 1106)⁽¹⁾ والذي قد يكون ابن القاضي عبد الجبار أحد أعلام المعتزلة، صاحب كتاب «شرح الأصول الخمسة»، ناظر الأشاعرة والحنابلة وغيرهما من الفرق الكلامية.

وأما عن «أبي حامد الغزالي» (ت 505 / 1111) فهو من أهم العلماء المشاركة الذين درس عليهم «ابن تومرت»، وتأثر بهم أيما تأثر، نظرا إلى ما لهذا العالم من قدرات علمية ومنهجية، ونظرا إلى موسوعيته وشمولية اهتماماته، له بصماته في محاور الفلسفة الإسلامية جميعها من حيث إنه عالم كلام أشعري وعالم في أصول الفقه، متصوف وفيلسوف .

لقد انتصر الغزالي للأشاعرة بالمناظرة و الدرس، وجدّد في مذهبهم ، فذاع صيته شرقا و غربا ولحسن جدله ومناظرته في دفاعه عن معتقده لُقّب بـ: «حجة الإسلام»، كما تمكن من التجديد في علم أصول الفقه، ويكفي أن نذكر فتواه الشهيرة التي أوردها في كتابه «المستصفى» والتي يُقر فيها بأن من لا يستخدم المنطق فكلامه لا يوثق به، فربط بذلك أصول الفقه بالفلسفة من حيث اعتماد المنطق كمنهج في استنباط الأحكام من الأصول. ويضاف إلى هذا نقده للفلاسفة و تكفيرهم خاصة في مبحث الإلهيات، كما انتقد وبشدة الشيعة في كتابه «فضائح الباطنية». وفي أواخر حياته أعلن ثورته على الشك وبحثه عن اليقين فوجده في التصوف وفي الأداة المعرفية للتصوف (أي الكشف) ثم تعمق فيه بالممارسة حتّى جدّد فيه من حيث التنظير له ومن حيث تبسيطه و شرح عبارته وتحديد مراحل وأحواله ومقاماته. وقليل ما نجد في التراث الإسلامي شخصا يجول عبر كل هذه المحاور ويدع فيها.

(1) إذا صحّ تاريخ وفاة هذا العالم فإن ابن تومرت لم يدرس عليه بحكم أنه سافر من المغرب سنة 501هـ، وإذا درس عليه بالفعل فإن تاريخ سفره قبل سنة 1106 / 500، والإحتمال الأول أقرب إلى الصواب .

-علي الإدريسي : الإمامة عند ابن تومرت، ص 110.

وعن علاقة ابن تومرت بالغزالي ، يكاد يجمع المؤرخون على أن ابن تومرت التقى فعلا بحجة الإسلام وحضر درسه، ولهذا الأمر أحصى أحد الباحثين تسعة مصادر تاريخية⁽¹⁾ تتحدث عن رحلة ابن تومرت إلى المشرق، ثمانية منها تذكر لقاء التلميذ بالأستاذ في المدرسة «النظامية» ومؤرخ واحد ينفي أن يكون حدث اللقاء، وهو «ابن الأثير».

هذا اللقاء يصفه صاحب «المعجب» مختصرا ويسهب فيه «ابن القطان» في «نظم الجمان» ففي هذا الأخير يذكر المؤرخ مصادر علمه بواقعة اللقاء، ثم يصف دخول ابن تومرت «المدرسة النظامية» حيث يُدرس الغزالي، فيجلس إلى درسه ويجري بينهما حوار، يسأل فيه الغزالي عن صدى «الإحياء» بالمغرب، فيعلمه ابن تومرت بحادثة حرقه من سلطان المرابطين و فقهاءه، وينعتهم في الوقت نفسه بالجهل وبالتقليد الذي طالما رفضه الغزالي، حتى أنه استهل نقده في كتابه «المتقذ من الضلال» لوسائل المعرفة ومصادرهما بدحض التقليد باعتباره وسيلة معرفية لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الشك واللايقين⁽²⁾.

فكان رد فعل الغزالي عند سماعه لما رواه ابن تومرت أن غضب وتوجه إلى الله بالدعاء أن يقوض ملك المرابطين. وهنا يطلب ابن تومرت من الغزالي أن يدعو الله بان يكون سقوط الدولة المرابطية على يديه، ومما جاء في النص الذي يروي فيه ابن القطان واقعة لقاء ابن تومرت بالغزالي، قوله:⁽³⁾

[... جاء ذات يوم رجل كثر اللحية ... فدخل المدرسة وحيّاها بالركعتين ثم أقبل إلى الشيخ أبي حامد فسلم عليه فقال: من الرجل؟ فقال : رجل من أهل المغرب

(1) هذه المصادر هي : المراكشي، ابن القطان ، ابن خلدون، الزركشي، ابن الأثير، صاحب الحلل الموشية ابن أبي دينار، ابن أبي زرع.

- Rachid Bouroiba : **Ibn Tumartm** ، p.24.

(2) الغزالي (أبو حامد): المتقذ من الضلال، تحقيق : عبد الكريم المراق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 28.

(3) ابن القطان : نظم الجمان ، ص 72.

الأقصى، فقال له :دخلت قرطبة؟ قال: نعم...قال: هل انتهى إليهم كتاب الإحياء ؟ قال: نعم، قال: فماذا قالوا عنه ؟فوجم الرجل وخجل ولازم الصمت حياء . فعزم عليه الشيخ ليقول ما طرأ ...فقال له: القوم جهال مقلدون لم يعرفوا قدره ورفعوا إلى سلطان العدو والأندلس في شأنه وأنه يجب أن يحرق فأمر بإحراقه...فتغير وجه أبي حامد فمد يده للدعاء والطلبة يؤمنون ، فقال في دعائه : اللهم مزق ملكهم كما مزقوه، واذهب دولتهم كما أحرقوه...[بعد جمعة]...فدعا بمثل دعائه الأول ، فقال له المهدي : على يدي إن شاء الله ، فقال اللهم اجعله على يديه...].

ما يستخلص من هذه الواقعة: أن المدرسة النظامية كانت تعامل كالمسجد بحيث تصلى بها الركعتان تحية المسجد، كما يُلاحظ أن اللقاء كان في أواخر حياة الغزالي، لأن ابن تومرت سافر إلى المشرق في حدود سنة 501 / 1107، مكث مدة بالإسكندرية ثم مكة ثم الشام ببغداد، ومعلوم أن الغزالي توفي سنة 505 / 1111 وهذا يعني أنه - أي الغزالي - قد أنهى تجربته الصوفية، بمعنى أن ابن تومرت قد درس على الغزالي في صورته الكاملة : المعلم، الفقيه، الفيلسوف، والصوفي صاحب التجربة العملية التي أوصلته اليقين وقضت على الشك الذي راوده في عقيدته وفي علمه، وفي عمله التعليمي على وجه الخصوص.

كما نلاحظ أيضا حرص الغزالي على أمرين :

الأمر الأول : رغبته في أن تصل مؤلفاته أبعد نقطة ممكنة، وهذا ما يبدو من خلال سؤاله: «هل انتهى إليهم كتاب الإحياء؟» والتركيز على هذا الكتاب بالذات دون غيره له دلالة، فهو كتاب يعتقد الغزالي أن محتواه ومنهجه يحيي الدين، وبلاستفادة منه يقضى على الجمود والتقليد، وهو يتحدث في علوم شتى في الفقه وأصوله وعلم كلام وآراء فلسفية، ثم تصوف مع شرح لمساكنه وخباياه، ثم إنه كتاب في تصنيف العلوم من وجهة نظر الغزالي التي تعكس اهتمامات عصره.

أما الأمر الثاني فهو حرص الغزالي على معرفة موقف قرائه ممّا يكتب، وهو ما عبّر عنه بسؤاله : «فماذا قالوا عنه ؟» مما قد يعكس تواضع الغزالي ... وهو الأمر الذي لن نجده عند ابن تومرت، وقد يعكس أيضا توقّعه بأن لا يكون قد أعجب بعضهم، وهو أمر طبيعي وموضوعي.

وما يستخلص أيضا من هذا النص ومن نص المراكشي في «المعجب» هو أن ابن تومرت لديه رغبة في الوصول إلى الحكم من خلال طلبه من الغزالي أن يكون هلاك سلطان المرابطين على يديه.

وبدراسته على الغزالي تكون شخصية ابن تومرت العلمية قد اتضحت معالمها وبينت نواياها وما هي مقدمة عليه، ويتضح ذلك من خلال المذهب الذي رام ابن تومرت تأليفه وعاد إلى المغرب لتجسيده، ففي ماذا يتمثل هذا المذهب وما هي العناصر التي تؤلفه؟

ثالثا- عودة ابن تومرت إلى المغرب بفكرة التغيير:

بعد أن تحدّدت ملامح شخصية ابن تومرت من خلال ما أفاده في المشرق واقترابه من جهايزة المذاهب العقديّة السائدة خاصة الأشعرية منها ممثلة في شخص أبي حامد الغزالي، عاد ابن تومرت إلى بلاد المغرب الإسلامي حاملا فكرة تأسيس دولة توحيد شعوب المنطقة كما توحيد مذاهبهم بالعودة حسب رأيه إلى الأصل الموحد للأمة الإسلامية. ولم ينتظر ابن تومرت حتى يعود إلى موطنه الأصلي ليجهز بدعوته، بل باشرها في رحلته إلى المغرب متبعا فكرة عقديّة تعد من الأصول لدى مختلف المذاهب وهي: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وتروي المصادر التاريخية أن ابن تومرت قد تعرض لمحن ومواقف صعبة بسبب جرأته وشجاعته في تجسيد هذا المبدأ، ومن ذلك ما يرويه عبد الواحد المراكشي في : «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» من حادثتين واحدة بالإسكندرية تسببت له في خروجه منها مطرودا والأخرى وهو في عودته إلى المغرب على ظهر السفينة التي كان مسافرا على متنها،

يقول صاحب «المعجب»: «... وكر راجعا إلى الإسكندرية فأقام بها يختلف إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه، وجرت له بها وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أفضت إلى أن نفاه متولى الاسكندرية عن البلاد، فركب البحر، فبلغني أنه استمر على عادته في السفينة، فأقام أكثر من نصف يوم يجري في ماء السفينة لم يصبه شيء، فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر، وعظم في صدورهم، وما زالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية»⁽¹⁾.

بجاية التي وصلها سنة 511 / 1117 واصل ابن تومرت نهجه في تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال المساجد والاحتكاك المباشر مع الناس، سواء كانوا من العامة أو الخاصة، وبهذه المدينة بدأ صيته يذاع ويتعاطم أمره ويلتف حوله الطلبة والأتباع حتى «نمى أمره إلى العزيز بن الناصر [صاحب بجاية] فهم به، ثم تركه عصمة من الله تعالى... فخرج المهدي من بجاية إلى رباط خارجها وعلى القرب منها يقال له ملالة...»⁽²⁾.

بهذه الضاحية من ضواحي بجاية وهو في طريقه إلى المغرب لقي ابن تومرت «عبد المؤمن بن علي» الذي كان في طريقه إلى المشرق لطب العلم فاستوقفه وتفرس فيه صاحب الذي يساعده على تحقيق مآربه السياسية وتجسيد أفكاره الموحدية فاتخذته تلميذا وصاحباً ليكون لاحقاً خليفته في التأسيس الفعلي للدولة الموحدية وتوسعها.

بعد بجاية وضاحتها ملالة توجه ابن تومرت غرباً ليمكث مدة بتلمسان موطن صاحبه وتلميذه عبد المؤمن بن علي (تاجرة). وهناك يذيع صيت الرجل أكثر، حتى أن «كل من بها [كان] يعظمه من أمير و مأمور إلى أن فصل عنها بعد أن استمال وجوه أهلها وملك قلوبها، فخرج قاصداً مدينة فاس، فلما وصل إليها أظهر ما كان يظهره،

(1) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 160.

(2) ابن القطان : نظم الجمان، ص 76-77.

وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم، وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية، وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم، ويعادون من ظهرت عليه، شديدا أمرهم في ذلك، فجمع والي المدينة الفقهاء وأحضره معهم، فجرت له مناظرة كان له التفوق فيها والظهور»⁽¹⁾.

ويرجع المؤرخون سبب تفوق ابن تومرت في مناظراته إلى اعتماده علوم النظر في مُحاوراته وهو ما كان ينعدم لدى محاوريه بحكم أن النظام المرابطي كان يحرم الاشتغال بالفلسفة وبالعلوم العقلية ولم يكن يسمح إلا بعلم الفروع (الفقه)، ثم إنه كان يحتاج مستخدما ما تعلمه من الغزالي من أفكار أشعرية، ومعلوم أن الغزالي كان الحديث عنه والاستدلال بمؤلفاته وأقواله ممنوعا من السلطة المرابطية ومحبوبا ومحفوظة مؤلفاته عن ظهر القلب من بعضهم، خاصة كتابه الإحياء الذي كان يتداول خفية، كل هذا تسبب لابن تومرت في أن أخرج من فاس، ولكن كسب الكثير من المؤيدين الذين سيجدتهم سندا في تحقيق الدولة الموحدية، يقول المراكشي معللا سبب تفوق ابن تومرت في مناظراته بقوله: «لأنه وجد جوا خاليا، وألقى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا إلى والي البلاد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام، فأمره والي البلد بالخروج، فخرج متوجها إلى مراكش»⁽²⁾.

ومن مراكش حيث بلاط علي بن يوسف بن تاشفين واصل أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر مع العامة ومع الخاصة، بمن فيهم أمير المرابطين وأسرته، وهناك أيضا تعمقت الفكرة العدائية تجاه الملتزمين الذين يكفروهم في مؤلفاته ويستحل دماءهم، ونتج عن هذا العداء والجرأة في نقد الحكام واتهامهم بالتخاذل والتعاس في مسائل العقيدة طرده أيضا من مراكش.

(1) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 159-160.

(2) المصدر السابق، ص 160.

في عام 514 هـ/ 1120 م فر ابن تومرت⁽¹⁾ من مراكش إلى أغمات، عبر مسالك جبلية حتى التحق بـ«السوس» حيث قبيلته هرغة، وهناك التف حوله قومه من هرغة وغيرهم من المصامدة وذاع صيته أكثر من ذي قبل وواصل الجهر بحركته الإصلاحية من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهناك بدأت تتشكل بوضوح حركته الموحدية، ولكن لم يعلن عنها صراحة ولم ينقل عمله الدعوي التعليمي إلى المسلك الثوري حتى أعلن في الناس أنه المهدي المنتظر، وقد مهد لذلك بجملة من الكرامات وخرق العوائد، والإكثار من الحديث عن فكرة المهدي وعصمته، وساعده في ذلك المقربون من أتباعه بتصديقه ونشر فكرته وخصاله التي - حسبهم - تنسحب عليه، بحسب ما تنص عليه النصوص الدينية. يقول صاحب المعجب في هذا الصدد: «فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادعى ذلك لنفسه، وقال أنا محمد بن عبد الله... ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة، حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك...»

منذ هذه الفترة، حوالي سنة 515 هـ / 1121 م أصبح ابن تومرت يلقب بالمهدي، وقد «لقبه بذلك العشرة من أصحابه ساعة مبايعتهم له أولى بيعة انعقدت له.»⁽²⁾ كما أنه لا يتوانى في تسمية نفسه بالمهدي وبادعائه العصمة، يقول صاحب نظم الجمان: «وقد وقفت على نسخة صك...أوله بعد البسملة والصلاة: أقول وأنا محمد بن عبد الله تومرت، وأنا مهدي آخر الزمان»⁽³⁾.

بتعليمه المشرقي وبعملية الإصلاح التي باشرها منذ عودته إلى بلاد المغرب بكل إيمان وبكل شجاعة بلغت حد التهور أحيانا، ثم بإمامته وادعائه المهدي ومبايعته

(1) النويري: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط/من كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984، ص 398.

(2) ابن القطان: نظم الجمان، ص 88.

(3) المصدر السابق، ص 89.

على أنه إمام مهدي معصوم أصبح كلامه عبارة عن أوامر و نواه يلزم من اتبعه بتنفيذها حرفيا وإلا عوقب، وكى يحدد تلك الأوامر والنواهي بوضوح ألف ابن تومرت وبلسان قومه الأمازيغي ما يجب أن يعتقدوه والأحكام الفقهية المنظمة لتصرفاتهم. كما سنّ لهم أعمالا دينية واجتماعية ألزمهم بها، فلقد أخذ قومه وأتباعه بقراءة حزب واحد من مؤلفه في كل يوم إثر صلاة الصبح بعد حزب من القرآن، ومؤلفه عبارة عن سفر مجلد يضم مجموعة من النصوص هي عبارة عن كتب في العقيدة والفقه والسياسة جمعت في مجلد واحد، وهي المعروفة بكتاب: «أعز ما يطلب».

يحتوي هذا السفر المطروح باعتباره بديلا عن موطأ مالك وبديلا عن مختلف كتب العقائد على اختلاف مذاهبها، بما فيها كتب الغزالي، على موضوعات تعليمية تربوية وعلى موضوعات عقيدية كمعرفة الله وصفاته ومعرفة سنة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - القولية والفعلية، ثم موضوعات لها العلاقة المباشرة بابن تومرت مثل معرفة المهدي وصفاته والأحاديث النبوية التي تنطرق إليه وأنه سيأتي من المغرب ليملاً الدنيا عدلا بعد ما ملئت جورا في إشارة واضحة منه أنه المهدي المنتظر، كما يضم هذا السفر أيضا الحديث عن الإمام وعن عصمته وهو الأمر الذي يلتقي فيه ابن تومرت بالشيعة، وهذا ليس تقربا منه من الشيعة بقدر ما هو استفادة من فكرة الإمامة الشيعية وما تعنيه من عصمة ومن ضرورة الولاء التام والطاعة للإمام. كما يضم سفره أحكاما أيضا، مفادها أن «الهجرة إليه واجبة لا يحول بينها وبين أحد من المسلمين أهل ولا ولد ولا مال، وأن من سمع بأمره وجبت عليه الهجرة إليه. ولا عذر له بوجه من الوجوه، ويكفر من لم يصله و لم يطعه، وذكر لهم فيه الآداب بينهم، وعلامة المؤمن وما يجب على المؤمن فعله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخى بينهم فيه، وذكر لهم علامة المنافقين... وجعل القتل في ثمانية عشر صنفا، كالكذب والمداينة... وحفظهم إياه ورباهم به... وجعل على كل عشرة نقيبا»⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 81.

بالإضافة إلى هذا صُنّف أتباعه الذين سماهم بالموحدين إلى طبقات عرفوا بطبقات الموحدين، بدءاً بأهل العشرة، وهم أهل الجماعة، وتتألف هذه العشرة من أهل الثقة عنده وأشرف أصحابه ومبايعيه الأوائل، وعلى رأسهم خليفته: عبد المؤمن ابن علي، ثم أهل الخمسين وهم دون تلك الطبقة الأولى، ويتكونون من رؤساء القبائل، ثم طبقة السبعين، فطبقة الطلبة، فالحفاظ، ثم صغار الطلبة، ثم أهل الدار، ثم الطبقة السابعة وهم أهل هرغة، فالطبقة الثامنة وتشمل أهل تينمل، وهكذا إلى الطبقة الثالثة عشرة وهم الأحداث الصغار⁽¹⁾.

يمكن أن نوجز نهج ابن تومرت التربوي الإصلاحية ونعلل تحوله إلى عملي مسلح، بأنه كان ذا وجهين، وجه رؤوف مربّ يقترب و يتودد به لمن يريد أن يجعلهم في صفه، خاصة الأطفال والشباب الذين يمكن أن يعول عليهم في نصرته وفي حملته لإقامة دولته، ووجه آخر فيه شدة وعنف، بحيث لا يتوانى عن قتل من يعارضه، ويصل به الأمر إلى التضحية بأحدهم ليكون عبرة لغيره في تقديم أقصى ولاءات الطاعة والانصياع. ومن الأمثلة الكثيرة التي تعجّ بها بعض المصادر التاريخية على غلظة الرجل وشدته وقسوته، حتى من قبل أن يظهر من يعارضه، أنه بعد أن بنى لأتباعه مسجداً خارج «تينمل» و«رأى كثرة أهل البلد وحصانة المدينة خاف أن يرجعوا عنه فأمرهم أن يحضروا عنده بغير سلاح، ففعلوا ذلك عدة أيام، ثم أمر أصحابه أن يقتلوهم، فقتلوهم في ذلك المسجد، ثم دخل المدينة فقتل بها... ونهب الأموال، فكان عدد القتلى خمسة عشر ألفاً»⁽²⁾ ولئن كان هذا الرقم مبالغاً فيه لأنّه من تعداد خصوم ابن تومرت، فإنّ غلظة هذا الزعيم الموحي وقسوته وشدّة خلفائه من بعده يوجد لها أمثلة كثيرة تروىها المصادر التاريخية بما فيها الموحدية.

(1) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى: المعجب لعبد الواحد المراكشي، ص 162، ونظم الجمان لابن القطان المراكشي، ص 82 وغيرهما.

(2) النويري: تاريخ المغرب الإسلامي... / من كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب، ص 399.

نظرا إلى هذه الازدواجية في التصرفات، انتهج ابن تومرت نهجين متتابعين ومتكاملين: النهج التربوي الإصلاحى، فكان حسه الشعبى أحيانا ذا حجم كبير جسده عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقرب من العامة والتودد إليهم، إلا أن «جرأته تقارب التهور، وهو ما أفضى به أخيرا إلى انتهاج المسلك الثورى العسكرى للمفاضلة مع الحكم المرابطى فى حل جذرى لتزليل الإصلاح الذى عزم عليه»⁽¹⁾.

إن مذهب ابن تومرت الذى هو عبارة عن وحدة بين مذاهب مختلفة: أشعرية، ظاهرية، معتزلية، شيعية... أرادها مجتمعة لأنه لاحظ تداولها على أنظمة الحكم فى المغرب الإسلامى: رستمى، فاطمى، ظاهرية، مالكية... كما لاحظ تواجدها فى المشرق وتشت المسلمين بسبب انتماءاتهم العقيدية التى تصل أحيانا درجة التباين والتناحر، كما هو الحال بين النصيين و بين الشيعة، أو بين المرجئة والمعتزلة، وغير ذلك من المذاهب المتباعدة فى أحيان كثيرة.

ولما عاد ابن تومرت من المشرق جاء بفكر حاول من خلاله الجمع بين ما هو متباين، ولكن اختار أهم المذاهب السائدة ذات الحجج القوية، لينبى بها مذهباً أراد توحيداً وموحداً للفرق، لهذا نرى فى مذهب العنصر الشيعى متمثلاً فى فكرة الإمام المعصوم والمهدي، وهى فكرة تخدمه فى الوصول إلى الحكم وفى البقاء فيه أيضاً، خاصة إذا ما تمكن من إقناع الناس بذلك، وبعودته أراد أن يحيى علم الكلام و علوم النظر، خلافاً للجمود الذى كان سائداً فى العهد المرابطى.

أما فى الفقه أو علم الفروع فلقد ادعى المهدي والموحدون أنهم يأخذون بطريقة السلف دون انتساب إلى مذهب أو إمام، حيث كان حكام الموحدين «يحثون على الأخذ مباشرة من الكتاب والسنة من دون المرور بالكتب الفقهية الفرعية التى كانت سائدة فى العهد المرابطى. كما نصبت لجنة من أعيان علماء الموحدين فأخرجت

(1) عبد المجيد النجار: فقه الإصلاح بين التربية والسياسة (ابن العربى و ابن تومرت نموذجاً)، مطبعة التوفيق، الرباط، 1997، ص 20.

للناس مجموعة من الأحكام مستدلا عليها من القرآن والسنة ونشرتها الحكومة في أرجاء المملكة ملزمة الناس العمل بها وإحراق ما دونها من كتب الفروع . وشدد العقاب على من يخالفها. وكان أبو يوسف يعقوب يباليغ في إكرام حفاظ هذا المجموع فيقربهم منه ويجزل لهم العطاء والمنح ووضع لهم المهدي نفسه موطأ كموطأ مالك وكتب لهم في ذلك مجاميع»⁽¹⁾.

وللموحدين الفضل في أن مسلمي المغرب الإسلامي عادوا إلى الخوض في علوم النظر حيث نشروا فلسفة أرسطو من خلال أقطاب الفلسفة الإسلامية: ابن طفيل وابن رشد وغيرهما من فلاسفة المغرب الإسلامي ولم تعرف فلسفة اليونان، خاصة فلسفة أرسطو شرحا أفضل من شرح هذين العلمين. وتكفي الإشارة إلى أن ابن رشد يلقب بالشارح الأكبر فهو الذي شرح فلسفة أرسطو بطلب من الخليفة، وما يقال عن الفلسفة يقال عن التصوف وعلم الكلام والأدب واللغة، وتكفي الإشارة أن من أقطاب التصوف الإسلامي من ظهر وبرز في كنف الدولة الموحدية مثل: أبي بومدين وما لعبه من دور بيجاية حيث كان يتخرج على يديه مشايخ المتصوفة، والشيخ الأكبر محي الدين بن عربي صاحب الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، والذي كان ومازال تأثيره ممتدا مشرقا ومغربا.

لقد أجمع المؤرخون على عناية الدولة الموحدية بشأن التعليم حتى أنه كان يماثل أنماط التعليم الحالية الابتدائية والثانوية والعالية. وكان «منتشرا في أنحاء المملكة وكان إجباريا... يشمل الذكور والإناث، وفيه من التعاليم الرياضية والحرية ما يشبه النظم العصرية بالمدارس الحكومية الرسمية اليوم»⁽²⁾.

وإذا كانت كتب الغزالي في النظام السابق - المرابطي - محظورة فإنه مع الموحدين «حررت وسمح بنشر مختلف الكتب في مختلف الفنون كالفروسية وسيرها

(1) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر، ج2، ص ص 21-22.

(2) المرجع نفسه، ص 25.

وكتب المغامرات والقصص... ولقد سمح بقراءة مثل هذه الكتب على كراسي المساجد في الوقت الذي كان فيه يعد ذلك كفرا في العهد المرابطي»⁽¹⁾.
إنّ مثل هذا التشجيع على علوم النظر وعلى العودة إلى الغزالي لا يعني أن حرية الفكر والقراءة كانت مطلقة في العهد الموحدّي، فهناك من الكتب الفقهيّة المالكيّة التي أمر بحرقها كما كان إذا ظهر مؤلف معارض أو مخالف للنمط الموحدّي بعض الشيء يطلب ممن هو موحدّي من العلماء التصدي له ومناظرته ودحض أفكاره. لكن توعّد الموحدّين لمخالفهم وما فعلوا بهم في عهد ابن تومرت لا يتيح إمكانية التجرؤ على الخلاف أو المعارضة.

رابعا- مذهب «ابن تومرت» أو أيديولوجية الدولة الموحدية:

إذا أردنا تحديد بدقة و بوضوح مذهب ابن تومرت وضبط منهجه في التصور العقدي، فإنّ ذلك يصعب كثيرا. ولقد احتار وأخطأ المؤرخون القريبون منه زمنا في تحديد ذلك فهذا «عبد الواحد المراكشي» يصف مذهب ابن تومرت بقوله: «وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلّا في إثبات الصفات، فإنّه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئا من التشيع، غير أنّه لم يظهر منه إلى العامة شيئا»⁽²⁾.

في حين يذهب ابن خلدون إلى رأي آخر يضيق فيه من تصوره لمذهب ابن تومرت فيجعله سنيا أشعريا صرفا، ويكتفي بذكر ما يجعل من ابن تومرت أشعريا فقط، مثل ضبطه لمفهوم علم الكلام حين يعده علما يدافع عن عقيدة السلف باعتماد العقل، ومثل إمكانية اعتماد التأويل، ثم يحكم بتعميم بأن الأشاعرة هم الأئمة في العقيدة، يقول «ابن خلدون» عن ابن تومرت وعن أشعريته: «وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة، وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية،

(1) المرجع نفسه، ص 25.

(2) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 162.

والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة في صدور أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل، وإمرار المتشابهات كما جاءت، فطعن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد. وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم»⁽¹⁾.

من خلال هذا النص وغيره من النصوص الخلدونية يبدو إن إعجاب ابن خلدون بالغزالي وبالأشاعرة، يضاف إليه خطؤه في اعتبار علم الكلام صناعة لم يعد لها مبرر وجود، لأن أئمة السنة ويقصد الأشاعرة، قد تصدوا للمبتدعة المنحرفين، وتكفلوا بالذود عن العقيدة⁽²⁾، قد أنساه ما تحمله عقيدة ابن تومرت من عناصر غريبة عن الأشعرية، بل الأشاعرة أنفسهم ناهضوها وكفروا أصحابها مثل: علاقة الذات الإلهية بالصفات، و مسائل أخرى. ثم إن نص «عبد الواحد المراكشي» ونصوص ابن تومرت فيها آراء غير أشعرية تفند ما ذهب إليه «ابن خلدون».

هذا وقد تعددت المدارس التي درس فيها وعلى أصحابها ابن تومرت: فقهية ظاهرية بالأندلس، مالكية بالإسكندرية، شافعية ببغداد، وعقيدية أشعرية جوينية ثم أشعرية غزالية، فأصولية متفتحة على الفلسفة، فصوفية. كل هذا يضاف إليه ما ذهب إليه «هنري لاووست» (H-Laoust) بأنه كان لابن تومرت لقاءات بأعلام من الحنابلة و بشخصيات فاعلة من الشيعة الإمامية والإسماعيلية، ويضاف إليه أيضا ما أفاده من خلال «اطلاعه عن كذب على أنظمة سياسية مختلفة حيث كانت له لقاءات مع العديد من الأمراء والولاة، وهو ما أكسبه معرفة واسعة بالواقع السياسي للمسلمين، ونفاذا إلى العيوب والانحرافات التي كان يشتمل عليها ذلك الواقع»⁽³⁾.

(1) ابن خلدون (عبد الرحمن) : «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» ج6، ص 466.

(2) ابن خلدون :مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، ص 517.

(3) عبد المجيد النجار : فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب، ص 68.

ما سبق ذكره يدفعنا إلى القول إن ابن تومرت قد أدرك بأن الاختلافات العقيدية والفقهيّة لها دخل في قيام الدول وزوالها، لهذا رام مذهباً عقدياً وفقهياً موحّداً وموحداً للأمة في دولة واحدة تقضي على الشتات والفرق سواء في الغرب أو في الشرق، وما دامت ساحة المغرب الفكرية بكرا ويعمها الجمود والتقليد رأى «ابن تومرت» أن يلم شتات المذاهب في مذهب واحد وسطه الجامع: الأشعرية لما فيها من نزعة وسطية واضحة تأسست لأجلها، ولما استفاده من تعليم أشعري من الغزالي على وجه الخصوص، ولأن فكر الغزالي ييسر نشره بالمغرب بحكم أنه ممنوع والممنوع يسهل رواجه، وبحكم وجود الحركة الاحتجاجية المنتصرة للغزالي والمذكورة آنفاً. وأمّا فروع المذهب فتمتد إلى المذاهب الأخرى كما هو الحال بالنسبة إلى الحنابلة والظاهرية، والمعتزلة من جهة، والأشعرية والباطنية من جهة أخرى.

إذن، وخلافاً لما ذهب إليه ابن خلدون، أو ما ذهب إليه المراكشي فإن ابن تومرت خرج في الحقيقة منهجياً عن دائرة الأشعرية وعن نسقها الفكري، سواء أشعرية غزالية أو جوينية أو باقلانية. والأصح أن ابن تومرت في تعلمه درس نماذج مختلفة من المذاهب، وفي واقعه السياسي والاجتماعي أدرك تنوعاً وتعدّداً مذهبياً مشتتاً، كما أدرك أن الدول تتعاقب انطلاقاً من وجهة مذهبية عقيدية أو فقهية محددة (مالكية أو حنبليّة، معتزلية أو أشعرية، أو إباضية...) فأراد وحدة مذهبية عناصرها منتقاة مع تغليب اللون الأشعري، وبذلك كآني بآبن تومرت قصد لمّ شمل أقصى اليمين بأقصى اليسار بتوسط أشعري، قدر المستطاع.

إنّ ابن تومرت بمذهبه الموحد من عناصر متنوعة، موفقة أو ملفقة، أراد أن يتوسط المذاهب مع عدم التفريط في بعض ممّا وجده ممكن الإفادة من «الباطنية» أو من «الظاهرية» أو من «الإباضية» أو من «الحنبلية» أو من «المالكية» أو من «الشافعية».

هذا المذهب - الذي رأى فيه ابن تومرت وحدة الأمة ووسيلته في بلوغ الحكم - كان لا بد له من رواج، وهذا لن يتم إلّا من خلال العملية التربوية التعليمية - من

خلال الأصل العقدي: الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر- التي تولاهما ابن تومرت بنفسه في المغرب الإسلامي انطلاقاً من تونس إلى موطنه الأصلي في جنوب المغرب الأقصى، وبذلك يتمكن من إعداد مساعديه في إقامة دولة يجسد فيها مذهبه، أو على الأقل إعداد رعايا مقتنعين بأرائه.

خامساً- من الأمر بالمعروف.... إلى أعزّ ما يطلب

يكتسي كتاب المهدي بن تومرت كما هو واضح من عنوانه أهمية قصوى على مختلف الأصعدة: العقديّة، الفقهيّة والسياسيّة، ويمكن القول بالمصطلح المعاصر أنه يجسد «أيديولوجية» الدولة الموحديّة كما رسمها المهدي بن تومرت، واستمرت مع خليفته عبد المؤمن بن علي، ثم مع بقية خلفاء الدولة الموحديّة .

يعرفنا أستاذنا الدكتور عمار طالبي بهذا الكتاب بقوله⁽¹⁾:

[«هو عبارة عن مجموع من كتب ورسائل في الأصول والفقه والتوحيد والحديث والسياسة والجهاد. وعرف باسم أول كتاب فيه. وبأول عبارة وردت فيه وهي: «أعز ما يطلب وأفضل ما يكتسب. وأنفس ما يدخر وأحسن ما يعمل العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير». يشتمل على كل التعاليق التي أملاها ابن تومرت ثم أملاها من بعده عبد المؤمن بن علي، ويدل على ذلك ما جاء في عنوان هذا المجموع: [سفر فيه جميع تعاليق الإمام المعصوم المهدي المعلوم رضي الله عنه مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن علي].

ومن أجل أن يعطي المهدي بن تومرت لصيغتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوب التنفيذ الحرفي للفعل المأمور به وإتيانه، ومخالفة المنهي عنه، وضع تقديمًا يمكن إدراجه ضمن: فلسفة اللغة وفقهها، تضمن هذا التقديم حديثًا عن اللغة وتراكيب ألفاظها ودلالاتها، كل ذلك من أجل أن يبين بأن الأمر القرآني والسني (النصي) يضاف إليهما الأمر المهدوي، أي نصوص ابن تومرت، وأهمها ما جاء في

(1) ابن تومرت : أعز ما يطلب، تحقيق عمار طالبي، مقدمة المحقق، ص7.

سفر «أعز ما يطلب» هو إلزام لا اجتهداد في طرح إمكانية تنفيذه من عدمها، فحكمها الشرعي: الوجوب، ولا اجتهداد في تخفيف هذا الحكم الفقهي الشرعي إلى مندوب أو إلى غير ذلك من الأحكام التخفيفية، ومثل وجوب تنفيذ الأمر النصي، كذلك الأمر بالنسبة للنهي، فهو واجب أيضا لا يخفف إلى مكروه أو دون ذلك.

إنّ المتأمل في كتاب أعز ما يطلب يدرك وللهمة الأولى من العنوان أنّه كتاب له منزلة خاصة، فهو أفضل وأثمن ما يجب على الموحد أن يطالعه، بل ويحفظه كحفظه للقرآن ويلتزم بتنفيذ ما جاء به حرفيا، لأنه ليس من تأليف كاتب عادي فهو مؤلف للحاكم، وليس أيّ حاكم فهو المهدي المنتظر والإمام المعصوم من الخطأ، ومن هنا قيمة الكتاب بشكل غير مباشر كقيمة القرآن والسنة النبوية. وهو كالقرآن كتاب للعلم والعمل به.

أما إذا تأملنا في محتويات الكتاب فإن الملاحظ فيه أنه متميز عن سائر الكتب المؤلفة في الحضارة الإسلامية، سواء العقيدية منها أو الفقهية، أوحثى الكتب الجامعة بينهما، ومن نقاط الاختلاف هذه أن سائر الكتب بما في ذلك المؤلفات التابعة لعلم النظر أو الفلسفة، فإنها عادة ما تستهل بالحديث في الإلهيات، كالحديث عن وجود الله وصفاته، وبصورة مختصرة نقول إنّنا عهدنا الكتب تبدأ بمسألة التوحيد والصفات الإلهية، في حين استهل ابن تومرت كتابه - كما سبقت الإشارة إليه - بالحديث في مسألة المعرفة: وسائلها ومصادرها، ومسألة اللغة ودلالاتها، لينتهي في نهاية الكتاب إلى مسألة الجهاد، وتأتي مسألة التوحيد والصفات في منتصف الكتاب.

كلّ هذا إن دل على شيء فإنما يدلّ على أن صاحب الكتاب يعتقد فعلا بالعصمة إلى درجة لا تصدق، كما يعتقد في مقابل ذلك بقصور المتلقي وبافتراض جهله إلى أبعد الحدود، لذلك يبدأ بالتعريف بوسائل المعرفة وكأنّه يقول للمتلقي بأنك تملك أدوات المعرفة لكن جهلك وقصورك جعلاك تهمل استعمالها، وأنا هنا من أجل أن آخذ بيدك لأعلمك كيف تعتمد سمعك ولسانك وتملأ فكري بالعلم الذي سألقنه لك،

وبالممارسات التي سألدها لك، فعليك أن تمتثل ولا تخرج عنها قيد أنملة. وبعد هذا التوضيح يشرع ابن تومرت في تقديم تصوره الذي هو في رأيه وبحكم عصمته أيقن وأصحّ تصوّرا، ومن هذه التصورات التي يعرضها ويلزمها ابن تومرت على أتباعه: الاعتقاد بأنّه المهدي المنتظر وبأنّه إمام معصوم يجب أن تكون طاعته عمياء، ومخالفته كفر وخروج عن جادة الصواب.

كلّ هذا يجعل من الفكر العقدي لابن تومرت وأحكامه الفقهية لا مجال فيها للمناورة والتلاعب، إذ من السهل جدا النزول إلى درجة الكفر حسب المنظومة العقدية والفقهية الموحدية بمجرد ما أن لا يلتزم أحد بأمر مهدي ما، أو يخالف ما هو منهى عنه. ونظرا إلى مخاطر الانزلاق في الأحكام الفقهية القاسية، ونظرا إلى صعوبة التمييز بين عناصر الإيمان والكفر في العقيدة الموحدية كثيرا ما حكم على من كان مقربا من النظام الموحدي بالكفر والزندقة بين عشية وضحاها، كما حدث لأبي الوليد بن رشد، وهو الأمر الذي يدفعنا إلى القول إنّ في كثير من الأحيان: يكون السياسي هو المتحكم في توجيه الحكم الفقهي أو العقدي. وصعوبة التمييز بين عناصر الكفر والإيمان تولّد في العقيدة غلوا وتكثر من الخصوم، بحكم أنّه من السهل جدا إيجاد الشخص الذي يحكم على أفعاله بالكفر، ذلك لأن صاحب مثل هذا التصور العقدي يؤمن بأن الإيمان يزيد بالتعلم والخبرة ولا يجب أن ينقص، لأنّ النقصان يعني الخروج عن دائرة الإيمان. ومثل هذا الحكم والفهم كان ذريعة للمهدي بأن يقاتل ويضطهد الكثير ممّن اعتقد بكفرهم أو خالفوه في أمر ما، وهنا يلتقي ابن تومرت مع المعتزلة، بالرغم من اشتهاهم بالزرعة العقلية.

خاتمة

من خلال كل ما سبق نستنتج أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُطبّق أولا بواسطة التعليم وتكوين التلاميذ والأتباع، ثم بحد السيف من خلال الوصول إلى الحكم وتأسيس نظام يقوم على خلفية عقدية معينة تلخص في كلمة «مذهب»، لا

مناص منها في أي دولة قامت ضمن الحضارة الإسلامية منذ نشأتها وازدهارها إلى ضعفها وحلول الحضارة الغريبة محلها.

لقد أدرك المهدي بن تومرت وخلفاؤه أن التعليم هو الوسيلة الأولى والأُنجع للوصول إلى الحكم والبقاء فيه أطول فترة زمنية ممكنة، وبلغة المنطق نقول: إنَّ التعليم وتطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال التربية والتعليم أوّلا هو الحد الأوسط في قياس مقدمته الكبرى: الدين ونتيجته: بلوغ سدة الحكم والبقاء فيه.

ولأنَّه أدرك هذه الثلاثية جيدا: التعليم، الدين والسياسة، احترف ابن تومرت صفة العالم وحامي حمى الدين بمذهب موحدٍ جديد قديم، جديد من حيث إنَّه مذهب يحل محل المذاهب القائمة في الحضارة الإسلامية، وقديم من حيث إنَّ عناصره مؤلفة من أبرز المذاهب السائدة (أشعرية، معتزلية، شيعة، إباضية...)، ولنشر مذهبه العقدي أو تياره السياسي عمل ابن تومرت معلما مرشدا، أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وتوج أستاذه ومهاراته التعليمية وعلمه الواسع بادعائه أنَّه المهدي المنتظر، وإقناع أتباعه بذلك بحد الكرامات - الحقيقية أو المفتعلة - أو بحد السيف كلما اقتضى الأمر ذلك، كل ذلك بهدف الوصول إلى سلطان المرابطين ليحل محلهم ويجسد مشروعه الوحدوي الموحد.

وهو ما تحقق له بالفعل، لكن هذه السلطة لم يبلغها إلّا بسفر شاق، هاجر لأجله مشرقا، وهناك تشعب بالفكر الإحيائي والمنقذ من الضلال من مصدرهما وهو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، كما تشعب بمحاسن مذاهب مشرقية كانت مزدهرة. ومقابل ذلك أدرك معايب النظام المرابطي القائم بالمغرب الإسلامي، كما أدرك معايب كثير من المذاهب التي تسببت في تفرق المسلمين وتخلفهم في مناطق دون أخرى. كلَّ هذا أنتج رجلا مقداما جريئا، كادت جرأته أن تقتله، وقتلت وأبادت الكثير، كما تروي ذلك المصادر التاريخية، ويعد الذين قتلهم بالآلاف، سواء من المتصرين للتيار المرابطي أو من الذين خالفوه الرأي وتقاعسوا في نصرته و مساندته.